Journal home page: http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/305

مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 17 / العـدد 01 / مارس 2023 / ص ص 462 - 472

الأوضاع الاجتماعية والسياسية لمنطقة الأغواط أثناء الحكم العثماني للجزائر من خلال رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي

The Social and Political Conditions of the Region of Laghouat during the Ottoman Rule of Algeria through the Journey of Hajj Ibn Eddine Laghouati

مصعب جعفورة [1] ، نورالدين بن دومة [2]

1 جامعة الأغواط (الجزائر) ، m.djaafoura@lagh-univ.dz

2 جامعة بسكرة (الجزائر) ، noureddine.bendouma@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/01/13 تاريخ القبول: 2023/03/30 تاريخ النشر: 2023/03/31

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي الموسومة بـ "رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية" و التي تعد أحد المصادر التاريخية المهمة التي تكلمت عن منطقة الأغواط خلال العهد العثماني.

و ما سنركز عليه في رحلة ابن الدين هو حديثه عن مدينة الأغواط وجانب من تاريخها الاجتماعي في العهد العثماني والمناطق المجاورة لها كتاجموت وعين ماضي و جبل عمور من خلال تقديم واستنباط أهم المعطيات المتعلقة بـ: الموقع والمساحة- العمران والمرافق العامة - الحياة السياسية و العسكرية - الحياة الاقتصادية – الأوضاع الاجتماعية و الثقافية كالسكان و القبائل و اللغة....إلخ.

ولأن المهمة الرئيسية للمؤرخ بعد الاطلاع على المرويات التاريخية، تمحيص الخبر وبيان صحته أو زيفه، وذلك بعد عرضه على منهج علمي واضح ومحدد المعالم، فإننا سنقوم بتقييم موضوعي لما ورد في رحلة ابن الدين الأغواطي بدون أن ينتقص ذلك من قيمة المؤلف.

كلمات مفتاحية: الرحلة، الأوضاع الاجتماعية، الحاج ابن الدين الأغواطي، العهد العثماني، الأغواط.

ABSTRACT:

This article aims to highlight the journey of Hajj Ibn Eddine Laghouati marked as "Laghouati's journey in Northern Africa, Sudan and Diriyah" which is one of the most important historical sources that tackled the region of Laghouat during the Ottoman era.

What we will focus on in the journey of Ibn Eddine is his talk about the city of Laghouat in the Ottoman era and its neighboring areas like Tadjmout, Ein Madhi and Djbel Ammour by offering and extracting the most important data related to: the location and the area- urbanism and public facilities - political and military life – economic life - social and cultural conditions such as population, tribes and language... etc.

And because the main task of the historian after checking out the historical narrations, and scrutinizing the report and whether the statement is valid or false, after going through a clear and well-defined scientific approach, we will objectively evaluate what was stated in the journey of Ibn Eddine Laghouati without detracting from the value of the author.

Keywords: The journey, The Social Conditions, Elhadj Ibn Eddine Laghouati, the Ottoman era, Laghouat.

1- مقدمة:

حسب العديد من الباحثين الذين اهتموا بالأغواط، فإنها تعتبر منطقة ضاربة في أعماق التاريخ، حيث تشير الاكتشافات الحديثة في المنطقة إلى أن التواجد الإنساني فيها يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، بالإضافة إلى الآثار التي تؤرخ للتواجد الروماني،

- المؤلف المرسل: مصعب جعفورة

doi: 10.34118/ssj.v17i1.3162
http://journals.lagh-univ.dz/index.php/ssj/article/view/3162

ISSN: 1112 - 6752 | رقم الإيداع القانوني: 66 - 2006 | EISSN: 2602 - 6090

كما عرفت المنطقة توافد مجموعات من القبائل البربرية وبعدها العربية، والملاحظ أن منطقة الأغواط كانت محل اهتمام لدى العثمانيين أثناء حكمهم للجزائر، فقد كانت محل تنافس بين "بايلك الغرب" و"التيطري" للسيطرة عليها.(Hamy, 1894, p. 128) .

وتكمن أهمية دراسة فترة الحكم العثماني في أنها تعطي صورة عن الأوضاع السياسية والاجتماعية التي عاشتها المنطقة قُبيل منعرج مهم في تاريخ الجزائر وهو الاحتلال الفرنسي، لذا وجب العناية بالمصادر التاريخية التي تؤرخ لتلك الفترة(التواجد العثماني) كالمذكرات والرحلات. لذا فإننا نهدف من خلال هذه المداخلة تسليط الضوء على رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي الموسومة بـ"رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية" و التي تعد أحد المصادر التاريخية المهمة التي تكلمت عن منطقة الأغواط خلال العهد العثماني.

و ما سنركز عليه في رحلة ابن الدين هو حديثه عن مدينة الأغواط في العهد العثماني والمناطق المجاورة لها كتاجموت وعين ماضي من خلال تقديم واستنباط أهم المعطيات المتعلقة بـ :الموقع والمساحة- العمران والمرافق العامة - الحياة السياسية والعسكرية - الحياة الاقتصادية – الأوضاع الاجتماعية والثقافية كالسكان والقبائل واللغة....إلخ.

ولأن المهمة الرئيسية للمؤرخ بعد الاطلاع على المرويات التاريخية، تمحيص الخبر وبيان صحته أو زيفه، وذلك بعد عرضه على منهج علمي واضح ومحدد المعالم، فإننا سنقوم بتقييم موضوعي لما ورد في كتاب ابن الدين الأغواطي بدون أن ينتقص ذلك من قيمة المؤلف.

إن السبب الذي دفعنا إلى اختيار رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي كمصدر أساسي للحديث عن مدينة الأغواط هو لكون الأغواطي أبرز رحالة جزائري طاف وجال بالعديد من مدن الجنوب الجزائري قبيل دخول الاستعمار الفرنسي، وعايش أحداثها في فترة تاريخية مهمة كما أنّه قدّم وصفا عاما لما رآه داخل المدن التي زراها من مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال حديثه عن القبائل والمذاهب الدينية واللغات. بالإضافة إلى طبيعة العلاقة بين بعض الأقاليم الجزائرية في تلك الفترة. الأمر الذي دفع بقنصل أمريكا بالجزائر وليام هودسون [1] لترجمها من العربية إلى الانجليزية.

لهذا فإننا نعتبر أن كتب الرحلة تعد من أهم المصادر التاريخية الغنية بالعديد من النّصوص التي تحوي معلومات مفيدة جدًا بالنسبة للباحثين، والتي لا يستطيع أي مهتم بالبحث في التاريخ أن يعدل عنها، ويمكن أيضا لمختلف مجالات المعرفة استيعابها وتوظيفها لما خلفته من كمّ هائل من المعلومات المختلفة.

2- التعريف بابن الدين الأغواطي:

في ديباجة هذه الرحلة يعرف مؤلفها نفسه بأنه الحاج ابن الدين الأغواطي، وحسب اطلاعنا فإنه لا يُعرف تاريخ ولا مكان ولادته، ولكن يبدوا من اسمه أنه أغواطي المنشأ و المستقر، وللأسف فإننا لا نملك معلومات كافية حول حياته سوى أنه عاش في القرن التاسع عشر الميلادي، وقد عايش الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر، ويرجح الدكتور ابو القاسم سعد الله[2] أن يكون ابن الدين الأغواطي قد كتب رحلته حوالي سنة 1829. أما عن تاريخ ومكان وفاته فهو الأخر غير معروف، لكن بعض المعلومات تشير إلى أن ابنه كان قاضيا في بلدية كوينين بواد سوف وحفيده الشيخ أبي بكر الحاج عيسى قد ولد بـ كوينين عام 1912. فهل توفي

1 - وليام هودسون: هو قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر ما بين عام 1825،1829، وهي الفترة التي تعرف فيها على الحاج ابن الدين الأغواطي، وبعد عودته إلى واشنطن سنة 1829 اشتغل هودسون كاتبا في وزارة الخارجية فترة، ثم بعثته حكومته رفقة زميل آخر له وهو السيد بورتر إلى القسطنطينية سنة 1831 لكي يترجم موافقة حكومته على المعاهدة التركية إلى العثمانيين، ورغم أنه رجع إلى واشنطن لبضعة شهور فإنه عين مستشارا للمندوبية الأمريكية في اسطنبول. وأثناء وجوده في واشنطن من 1829 إلى 1830 اشترك في عدة أنشطة علمية كإلقائه أبحاثا عن شمال افريقية ولغته وأهله وجغرافيته، وذلك أمام الجمعية الفلسفية الأمريكية التي مقرها فيلاديلفيا، وقد نشرت هذه الجمعية أبحاثه في مجلتها. كما نشرت بعضها ملخصة مجلة (نورث أمريكيان)، كما أنه ترجم ونشر في هذه الأثناء رحلة ابن الدين الأغواطي التي نحن بصددها. (سعد الله، 2011، الصفحات 81-82)

2 - كان الفضل للدكتور أبو القاسم سعد الله في نشر هذه الرحلة بالعربية لأول مرة بعد أن ترجمها عن اللغة الإنجليزية.

ابن الدين الأغواطي في الأغواط وهاجرت عائلته إلى واد سوف؟، أم أنه هو من هاجر إلى واد سوف واستقر هناك بعد سقوط الأغواط في يد الفرنسيين؟.

أما عن الجانب العلمي في حياة ابن الدين الأغواطي، فإن الدكتور أبو القاسم سعد الله يصفه بأنه كان "قليل التعلم كثير الاطلاع"، فهو قليل التعلم لأن المعلومات التي أوردها في رحلته عن بعض الأحداث التي شهدها عصره، وكذا تاريخ الحضارة الإسلامية، لا تدل على معارف دقيقة، كما يظهر أنّه لا يفرّق بين الطوائف الإسلامية ومذاهبها الدينية كالشيعة والخوارج والمعتزلة مما يدل على ثقافته الدينية الضعيفة.

ويضيف الدكتور سعد الله أنه كان من (المستمعين الذين يعرفون ولا يدققون، يلمون ولا يتخصصون) أما كثرة اطلاعه فتظهر من خلال خبرته بجغرافيا المناطق التي وصفها، والتي يبدوا أنه رأى ما كان يتكلم عنه، فنحن نجده في عدة مواضع من الرحلة يذكر عبارة (رأينا) أو(وجدنا). لهذا نجد الأغواطي قد وثق أخبار أسفاره وتنقلاته فذكر المناطق والبلدان والمدن التي زارها أو مرَّ بها والمسافات والمراحل التي اجتازها، فوصف البلاد وزرعها، والهائم ونوعها، كما تحدث عن أحوال التجارة، وفنون الصناعة، ووصف السكان فذكر الطيب من عاداتهم وتقاليدهم بالمديح والثناء، وعاب واستنكر ما هم عليه من العـادات السيئة والجفاء.

3- وصف الرحلة وبيان أهميتها:

يعتبر الحاج ابن الدين الأغواطي من بين أبرز الرحالة الجزائريين، وهذا من خلال كتابته عن العديد من بلدات الجنوب الجزائري في الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر، بالإضافة إلى بعض مدن الشمال الإفريقي والجزيرة العربية. فقد قدّم وصفا عاما لما رآه من مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وقد ذكر وليام هودسون - مترجم رحلة الأغواطي من العربية إلى الإنجليزية- أن النص الأصلي للرحلة كان مكتوبا بخط مغربي (موريتاني) غير جيد وغير دقيق، وأن حجم المخطوط بلغ أربع عشرة صفحة (Hodgson, 1831, p. iv). وهنا تساءل الدكتور ابو القاسم سعد الله إذا ما كان الحاج ابن الدين قد كتب عملا كبيرا فاختصر منه النص الذي قدمه إلى هودسون .

والملاحظ أن ابن الدين الأغواطي قد بدأ مؤلفه بدباجة مختصرة، اكتفى فيها بعد البسملة والصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) بعبارة مقتضبة جدا وهي: "(إنّ هذا الكتاب يحتوي على وصف مختلف البلدان والأماكن من قبل الحاج ابن الدين الأغواطي)" (سعد الله، 2011، صفحة 87)، وفي هذه الدباجة خالف الأغواطي بعض التقاليد التي عهدناها مع الرحالة والجغرافيين القدماء ومن المعاصرين له، حيث أنّه لم يوضح الدوافع والأسباب التي قادته إلى رحلته، وهذا ما يدل على قلة خبرة الأغواطي في الكتابة وفن التأليف.

وعلى العموم فإن الرحلة تحتوي على وصف عام لما رآه الأغواطي من مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الأمصار التي زارها. وكانت الأغواط التي ينتسب إليها المؤلف أولى البلدات التي تحدث عنها، ثم انتقل إلى البلدات والمناطق القريبة من الأغواط كتجمعوت (تاجموت) ثم بلدة عين ماضي، لينتقل إلى الحديث عن جبل عمور. ثم تحدث عن رحلته من الأغواط إلى متليلي بواد ميزاب، فأورد وصفا لبلدة متليلي، ثم تكلم عن القرى أو البلدات الستة الموجود في واد ميزاب وركز على أكبرها غرداية وبين مذهب سكانها، وقد تحدث أيضا عن الطريقة التي يتبعها سكان المناطق الصحراوية في صناعتهم للبارود. وبعد ذلك تكلم عن رحلته من متليلي إلى المنيعة وهذه الأخيرة أورد لها وصفا، لينتقل إلى ورقلة، وبعدها يتحدث عن رحلته من المنيعة إلى واحة توات، ليصل إلى وصف تيميمون والقرى التي تقع جنوبها كأولف، ثم يتحدث عن عين صالح والقورارة حتى يصل إلى شنقيط فتنبكتو. وبعد ذلك يتكلم الأغواطي عن رحلته من ورقلة إلى غدامس، فيصف كل من وادي سوف وغداس وقابس، بالإضافة إلى

شعب الطوارق وبعض القبائل، ثم يتحدث عن كل من تقرت وجزيرة جربة وقبيلة ورغمة العربية والمسافة من قابس إلى طرابلس . و في آخر الرحلة يتحدث عن مدينة الدرعية 3 في الجزيرة العربية، عاصمة الوهابيين وآل سعود.

يمكن اعتبار رحلة ابن الدين الأغواطي مصدر تاريخي هام جدا فهي تحتوي على معلومات متنوعة حول المدن والقرى التي زارها، من خلال وصفه لجغرافيا هذه المناطق وللحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بالإضافة إلى معلومات هامة حول القبائل، والمذاهب الدينية واللغات. وكذا وصف لعلاقة بعض الأقاليم الجزائرية ببعضها البعض.

ولقيمة هذا المؤلف فقد ذكر مترجم الرحلة إلى الإنجليزية القنصل الأمريكي بالجزائر وليام هودسون W.B.HODGSON 1825-1829 في المدخل الذي جعله في أول ورقات رحلة ابن الدين التي نشرها لأول مرة باللغة الإنجليزية في واشنطون بتاريخ: 03 سبتمبر 1830، قائلاً: "(إنني أعتقد أنّ الرحلة تحتوي على معلومات تهم جغرافية إقليمية، بحيث قد تكون مفيدة للرحالة في المستقبل، إنّ معظم المدن والشعوب التي تحدّث عنها ابن الدين غير معروفة معرفة جيدة، بل إنّ بعضها لم يشر إليها أي رحالة أو جغرافي أوربي من قبل، حتى ليون الإفريقي نفسه لم يذكرها)" (Hodgson, 1831, p. iii) وقد نشر هودسون الرحلة بالإنجليزية في وقائع لجنة الترجمة من اللغات الشرقية في 29 صفحة، ثم لخصته سنة 1832 مجلة (نورث أمريكان وفيو) وكان موضع اهتمام الباحثين في هذا الميدان.

ولأهمية هذه الرحلة سارع الفرنسيون بترجمتها وتداولها، وقد كان الفرنسيون أكثر اهتماما عندئذ بإفريقية من الأمريكيين، فقد ترجم السيد دافيزاك d'Avezac هذه الرحلة إلى الفرنسية (من الإنكليزية) وقرأ الترجمة في جوان 1833 على أعضاء الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس، ثم نشرها بتعاليق هامة وتذييلات، كذلك نشرتها بالفرنسية قبل دافيزك مجلة (أخبار الرحلات الجديدة) (سعد الله، 2011، صفحة 83).

وعلى العموم فإن أهمية رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي تكون في اعتبارها مصدر هام يؤرخ للفترة التي عاشها ابن الدين وقام بها برحلته الشهيرة وهي الفترة التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد كشفت لنا هذه الرحلة الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للعديد من مدن الجنوب الجزائري، بما فيها منطقة الأغواط التي نحن بصدد الكتابة عنها.

4- منطقة الأغواط من خلال رحلة أبن الدين الأغواطي:

4-1- الموقع والمساحة:

عندما يتحدث ابن الدين الأغواطي عن موقع البلدات التي زارها فإنه غالبا يحددها من خلال المسافة بينها وبين المدن التي بجوارها، فيقول أن المسافة بين الأغواط ومتليلي حوالي ثلاثة أيام، و"على مسافة مسيرة يوم شمال الأغواط تقع قرية تجمعوت (تاجموت) وعلى الجهة الشمالية من تجمعوت جبل عال جدا يسمى جبل عمور، وهناك أيضا جبل من الملح بالقرب من جبل عمور" (سعد الله، 2011، صفحة 88)، وعلى الغرب من تاجموت تقع بلدة عين ماضي، والمسافة بينها وبين الأغواط مسيرة يوم.

ويقول الحاج ابن الدين:(أن الأغواط بلدة كبيرة.....) ويبدوا أن وصفه للأغواط بالكبيرة، دليل على انها كانت من أكبر البلدات الصحراوية في تلك الفترة، خاصة إذا ما قورنت بالبلدات المجاورة لها كتاجموت وعين ماضي.

3 - الدرعية: حاليا هي إحدى المدن السعودية، وقد اقترن اسمها بنشوء المملكة العربية السعودية، بعد نصرة أمير الدرعية محمد بن سعود لدعوة التجديد الديني التي نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لتكون الدرعية عاصمة الدولة السعودية في بداية تأسيسها، وهذا بعد المبايعة التاريخية التي تمت عام 1157هـ / 1744م، بين أميرها محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب. (العثيمين، 2012، صفحة 14)

كما أشار ابن الدين إلى الوديان في المنطقة وتكلم عن وادي مزي فقال: "(ويقسم وادي امزي الأغواط إلى شطرين، وهو يجري وسطها. وهذا الوادي مشهور في الناحية.)" (Hodgson, 1831, p. 5)، والذي قصده ابن الدين في ذلك الوقت هو "وادي الخير " الذي يتفرع من وادي أمزي.

ويشيد ابن الدين بموقع مدينة الأغواط، فيقول (ولا تقترب العقارب ولا الطاعون منها لأنها مبنية في موقع مفضل. وهذه الناحية كثيرة الجبال وفي الجهة الشمالية منها جبل صخري ضخم.) (Hodgson, 1831, p. 6)

وقد ذكر ابن الدين في رحلته أنه "(توجد شرقي الأغواط أثار بلدة قديمة كان أمراؤها مسيحيين، وإلى هذه الأيام يرى المشاهد كثيرا من النقوش في هذه الآثار.)" (سعد الله، 2011، صفحة 87)، ويعلق الدكتور أبو القاسم سعد الله على هذه النقطة فيقول أن المؤلف (ابن الدين الأغواطي) لم يذكر اسم هذه البلدة، ولعله يعني بالمسيحيين (الروم) أو الرومان.

كما وصف الأغواطي منطقة جبل عمور قائلاً: (ان جبل عمور جبل عال جدا وفيه مائة عين جارية، وينبع منه نهر كبير يسمى نهر الخير وهو مشهور عند الجميع، وأرض هذا الجبل صالحة للزراعة، وفيه كل أنواع الخشب، ويقدر طوله وعرضه بحوالي مسافة يومين لكل منهما.)" (Hodgson, 1831, p. 8)

نذكر أن هناك اختلافا في كتابة الأغواط في الترجمات والكتابات الانجليزية، حيث أنه في ترجمة هاودسون تظهر الأغواط بكتابة (Eghwaat) بينما تظهر في كتاب الرحالة البريطاني توماس شاو عن رحلاته الى المناطق البربرية والشام بكتابة (Low-aate) (Shaw, 1808, p. 98).

4-2- العمران والمرافق العامة:

في سياق حديث ابن الدين عن الجانب العمراني والمرافق العامة في مدينة الأغواط، فإنه يصفها بالبلدة الكبيرة والتي تتميز بوجود تحصينات، إذ أنها محاطة بسور من أجل الحماية من أي عدوان خارجي، ويوجد بهذا السور أربعة أبوب . وبالنسبة للمساجد في الأغواط في تلك الفترة حسب ابن الدين فإن عددها أربعة مساجد، وهذه المساجد تفتقر إلى منارات.

وفي نفس السياق، يذكر هاودسون في مقال له منشور في مجلة الجمعية الأميريكية للفلسفة4 أن مدينة الأغواط مبنية على شكل بيضاوي، والحدائق الملحقة بها تشكل متوازي الأضلاع (Hodgson, 1834, p. 30). ويرفق هذا الوصف برسم يبين شكل المدينة:

4 - يشمل هذا المقال رسائل هاودسون الى رئيس الجمعية. المعلومات المذكورة أعلاه تظهر في الرسالة الرابعة المؤرخة في 1 أفريل 1829.

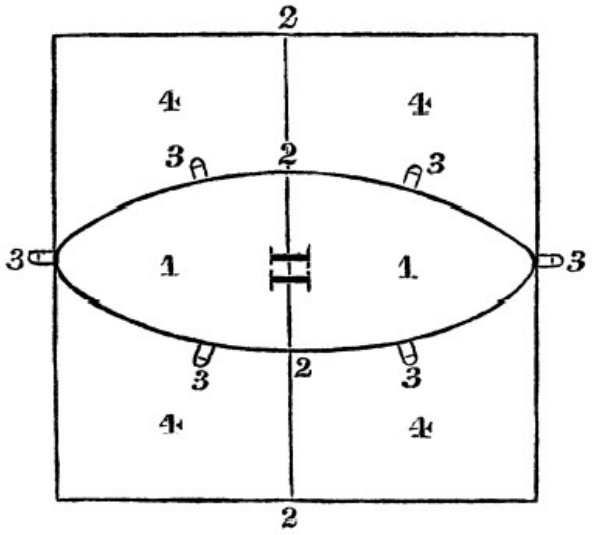

1. 1. The two tribes. 2. 2. Wall of partition and gate. 3. 3. Respective gates. 4. 4. Respective gardens enclosed by walls.

شكل 1. مخطط يوضح تقسيم مدينة الأغواط حسب هودسون (Hodgson, 1834, p. 30).

من خلال الشكل و الشرح المبسط أسفل الرسم، نلاحظ أن الرقمان 1 . 1 يمثلان القبيلتان (الأحلاف و أولاد سرغين)، والرقم 2 يمثل السور الذي يقسم المدينة وفي منتصفه تقع بوابة، الرقم 3 هو للأبواب التي تحيط بالقبيلتين، بينما الرقم 4 فيمثل الحدائق التي يحيط بها سور. ويذكر هاودسون أن البوابة التي تقع بين القبيلتين تغلق في أوقات الحرب (Hodgson, 1834, pp. 29,30).

وفيما يخص المادة الأولية التي تستخدم في البناء في الأغواط، فإن السكان اعتمدوا أساسا على الطين، مع وجود بعض المنازل التي بنيت بالحجر والملاط. ويذكر ابن الدين أيضا ان الأغواط لا تتوفر على حمامات عمومية، بالإضافة إلى عدم توفر البلدة على مكان مخصص للسوق.

أما بالنسبة لقرية تاجموت فيقول ابن الدين الأغواطي أن السكان هناك يعتمدون في بناء منازلهم على الحجر والطين.

وفيما يخص بلدة عين ماضي فإنها محاطة بأسوار، ويقول ابن الدين أن هذه الأسوار تشبه الأسوار التي تحمي مدينة طرابلس، كما أن للبلدة بابان عظيمان، بالإضافة إلى وجود حمام يتوسط البلدة عكس مدينة الأغواط التي تفتقر إلى الحمامات، ويذكر ابن الدين أن الحمام هو ملك لحاكم عين ماضي ولد التجيني (التجاني) والذي يملك أيضا مكتبة كبيرة.

4-3- الحياة السياسية والعسكرية:

شهدت الأغواط في تلك الفترة عدم استقرار سياسي بسبب وجود حالة الاقتتال الدائمة بين سكانها، بحيث ينقسم السكان في البلدة إلى فريقان" فريق يسمى الأحلاف يقيم شرقي القصر، وفريق يسمى أولاد سرغين ويقيمون غربه. وهم غالبا في حالة حرب بينهم، وسبب الخصومة بينهم على العموم هو رفض فريق منهم طاعة شيخ البلدة" (سعد الله، 2011، صفحة 87) ويبدو أن الأغواط كانت تحكم من قبل شيخ البلدة، لكن تمرد أحد الفريقين على هذا الشيخ ، جعل الأغواط في حالة صراع بين الأحلاف وأولاد سرغين.

وبالنسبة لقرية تاجموت فإن الوضع السياسي لا يختلف عن الأغواط، حيث "ينقسم سكان هذه القرية إلى فريقين، وليس لهم رئيس أو حاكم، وهم يتحاربون فيما بينهم كما يفعل أهل الأغواط" (سعد الله، 2011، صفحة 88).

بينما نجد الوضع السياسي مختلف في عين ماضي عن الأغواط وتاجموت، حيث أنه لا يوجد اقتتال بين سكانها وهذا لتوحدهم حول حاكم واحد يسمى ولد التجيني وهو ابن الشيخ أحمد التجاني، ويصف ابن الدين هذا الحاكم فيقول: " (ولحاكمها الذي يسمى ولد التجيني حوالي مائة عبد وخزنة مليئة بالنقود، ومنذ سنتين فقط (أي سنة 1243هـ 1827م) جمع أخوه جيشا بهدف الزحف على وهران والاستلاء على خزنتها، وقد انضم جميع عرب الناحية المحيطة إلى لوائه، وزحفوا بالطبول والمزامير، وأعطيت لهم الخيول والخيام. وقد سقطت مدينة معسكر في أيديهم، وتقدموا نحو وهران، غير أن باي وهران وزع الدراهم على عرب الحملة بهدف هزيمة هذا الجش. وقد نجح الباي فجعلهم بذلك يسحبون تأييدهم لولد التجاني الذي قتل فيما بعد اثر هجوم قام به الباي ضد جيشه.) (سعد الله، 2011، الصفحات 88-89) ويبدوا أن ولد التجاني قد جمع بين السلطتين، السلطة الدينية باعتباره خليفة للطريقة التجانية، والسلطة السياسية من خلال وصف ابن الدين بأنه كان حاكم لبلدة عين ماضي. أما سكان منطقة جبل عمور فلا يحكمهم أي سلطان.

ومما ذكره ابن الدين الأغواطي هو عدد المسلحين في المنطقة، فقد قُدر عدد مسلحو الأغواط بحوالي ألف رجل، بينما عدد المسلحين في عين ماضي حوالي ثلاثمائة رجل. وبالنسبة للمسلحين في منطقة جبل عمور فهم حوالي ستة آلاف شخص.

4-4- الحياة الاقتصادية:

إن موقع الأغواط جعل منها تعتمد على نشاطين رئيسين هما الفلاحة و التجارة، فبالنسبة للفلاحة فإن الأغواط في الأصل عبارة عن واحة من أشجار النخيل، كما أنها تتميز بوفرة المياه الجوفية العذبة، وهذا ما يفسر كثرة بساتينها الغناء على ضفتي وادي امزي، حتى انها سميت بمدينة البساتين، بل إن البعض يرجع سبب التسمية بالأغواط، وهي جمع غوط أي البستان، وهناك رأي يرى بأنها استمدت اسمها من الغوطة وهي منطقة زراعية في بلاد الشام. ويقول ابن الدين عن الأغواط أنها " تنتج الفواكه بكثرة، ومن بينها التمر، والتين والعنب، و السفرجل، و الرمان، والأجاص" (Hodgson, 1831, p. 5).

أما بالنسبة للنشاط التجاري، فإن ابن الدين يصف التجارة في الأغواط بأنها كانت "رائجة"، وهذا بالرغم من أنه ليس لهذه البلدة مكان مخصص للسوق. ولاشك ان الموقع الاستراتيجي للأغواط ساهم في ازدهار النشاط التجاري، حيث تعتبر بوابة الصحراء و مدخلا رئيسا لها لأنها تقع في الوسط، وهي ملتقى القوافل التجارية من الشرق و الشمال و الغرب نحو الجنوب والعكس." أما العملة المتداولة فيها فهي عملة الجزائر وفاس" (سعد الله، 2011، صفحة 88).

كما لمح ابن الدين إلى حالة من الرفاهية والغنى يعيشها حكام بلدة عين ماضي، فيقول ابن الدين عن التجاني أنه يملك "حوالي مئة عبد وخزنة مليئة بالنقود..... ومن بين أملاكه الفخمة سروج وتحف مطرزة بالذهب، كما أنه يملك مكتبة كبيرة" (سعد الله، 2011، الصفحات 88-89)

وبالنسبة لمنطقة جبل عمور، فالأغواطي يصف أرض هذا الجبل بأنها صالحة للزراعة، وتتوفر على أنواع كثيرة من الخشب، بالإضافة إلى النشاط الزراعي، فإن السكان في جبل عمور يهتمون بتربية الإبل، وبعضهم يربي المعز والغنم.

5-4- الأوضاع الاجتماعية والثقافية:

يقول ابن الدين الأغواطي في رحلته أن سكان بلدة الأغواط ينقسمون إلى فريقان: "فريق يسمى الأحلاف، وفريق يسمى أولاد سرغين، وهم غالبا في حالة حرب بينهم، وسبب الخصومة بينهم على العموم هو رفض فريق منهم طاعة شيخ البلدة" (سعد الله، 2011، صفحة 87).

أما بالنسبة للغة فإن سكان كل من الأغواط و تاجموت و عين ماضي وجبل عمور يتكلمون اللغة العربية، كما أتى ابن الدين على ذكر نوعية اللباس، فقال أن السكان يرتدون الملابس الصوفية.

وفيما يخص نساء الأغواط يقول : " ولا تخرج فيها النساء المحترمات من بيوتهن أبدا. ولكن غيرهن يظهرن في الشوارع." (سعد الله، 2011، صفحة 87) وإذا كانت النساء المحترمات في الأغواط لا يخرجن من بيوتهن أبدا، فإن نساء عين ماضي يظهرن في الشوارع.

كما يشير ابن الدين إلى وجود العبودية في تلك الفترة، فيقول أن ولد التجاني حاكم عين ماضي كان يملك مائة عبد.

5- تقييم موضوعي لما ورد في الرحلة:

رغم ما في رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي من قيمة علمية مفيدة، وهذا باعتبارها مصدر تاريخي هام جدا لأنها تحتوي على معلومات متنوعة حول المدن و القرى التي زارها، من خلال وصفه لجغرافيا هذه المناطق وللحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها. إلا أنها تحتوي على بعض الملاحظات التي وجب ذكرها، ذلك أن واجب الباحث في ميدان التاريخ أن "لا يأخذ الوثائق على علاتها، بل يعمد بأساليب من النقد و التمحيص، إلى فحص كل منها لتبين قيمته ومدى إمكان الركون إليه في استخراج أخبار الماضي." (زريق ، 1979، صفحة 71) وفيما يلي نورد بعض الانتقادات الموجهة لرحلة ابن الدين الأغواطي دون أن ينتقص هذا النقد من قيمة المؤلف:

- لم يتكلم ابن الدين الأغواطي عن القبائل البدوية الموجودة في منطقة الأغواط وأقصد هنا قبيلة الأرباع التي تعتبر من كبرى القبائل التي استوطنت المنطقة ولا تزال، حيث تنتشر هذه القبيلة عبر منطقة واسعة بين بسكرة شرقا و أفلو و البيض غربا و من الجلفة شمالا إلى غرداية جنوبا. وربما نعذر ابن الدين في عدم وجود إشارة عن قبيلة الأرباع - والتي كانت أمر مهم يجب الحديث عنه في رحلته- ، لأنه كما لمح الدكتور أبو القاسم سعد الله أن ما كتبه ابن الدين في رحلته قد يكون أكبر مما قدمه لهودسون، الذي قال أن عدد صفحات المخطوط الذي أعطاه الأغواطي إياه أربعة عشر صفحة فقط، فلا يمكن اختصار الرحلة التي قام بها ابن الدين في اربعة عشر، وهو الذي زار العديد من المناطق والمدن في رحلته من شمال افريقيا إلى الجزيرة العربية. لهذا نرجح أن ما كتبه الأغواطي في رحلته أكبر من الذي حصل عليه هودسون والذي فيه الكثير من الإيجاز. ولا شك أن هذا الإيجاز الذي ميز الرحلة التي كتبها ابن الدين، أصبح مخلا للمعنى في كثير من المواضع.

- في النسخة العربية المترجمة، يتكلم ابن الدين عن وضع النساء في المجتمع الأغواطي بقوله: (ولا تخرج فيها النساء المحترمات من بيوتهن أبدا. ولكن غيرهن يظهرن في الشوارع.) (سعد الله، 2011، صفحة 87)

والملاحظ في هذه العبارة " النساء المحترمات " أنه قد يُفهم أنّ ابن الدين كان يُلمح إلى وجود البغاء في البلدة في تلك الفترة، وعند اطلاعنا على النسخة الانجليزية5، يذكر هاودسون أن النساء من الطبقة الأفضل (وليست النساء المحترمات) لا يغادرن بيوتهن أبدا، بينما تجد النساء الأخريات في الشوارع (Hodgson, 1831, p. 5) . ولعل ابن الدين كان يقصد من الطبقات العليا الذين لا يخرجن من بيوتهن بينما تخرج الخادمات للشوارع. بالإضافة إلى أن مسألة الخروج من المنزل لا تعتبر مقياس للمرأة المحترمة، ففي عين ماضي وهي منطقة قريبة من الأغواط ولا تختلف عادات وتقاليد مجتمعها عن مجتمع الأغواط يذكر ابن الدين نفسه أن النساء فيها يظهرن في الشوارع.

- أشار ابن الدين إلى وجود العبودية في تلك الفترة، فيقول أن ولد التجاني حاكم عين ماضي كان يملك مائة عبد. وهذا الخبر يشوبه الكثير من الخطأ، فهؤلاء العبيد كما وصفهم ابن الدين قد تم تحريرهم بمجرد دخولهم في الإسلام، وأصبحوا خداما

5 النص الأصلي لهاودسون بالانجليزية: "The women, of the better class, never leave their houses; but others appear in the streets".

يرعون شئون مريدي وزوار الزاوية التجانية، وربما المكانة القدسية التي يحتلها الشيخ أحمد التجاني وأبناءه لدى مريدي الطريقة التجانية من الأفارقة، جعلت ابن الدين يعتقد بأنهم عبيد. وربما يكون حديث قنصل الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر "وليام شالر" أثناء الحكم العثماني، عن مسألة العبودية في الجزائر كانت أقرب للحقيقة من رواية الأغواطي فيقول في مذكراته:"(والزنوج يشكلون جزءا آخر من السكان، ولو أنه صغير، فهؤلاء في الأصل، من العبيد الذين اشتراهم أسيادهم من داخلة القارة، أو من طرابلس، ولكنهم سرعان ما يحصلون على حريتهم باعتناقهم الاسلام، وهو عمل قلما يتأخر أحدهم عنه، والمعروف أن الرقيق كان دائما هنا من النوع الخفيف وهو أقرب إلى أن يكون نوعا من العمل في مقابل العناية و الحماية من العبودية.)" (شالر، 1982، صفحة 92).

- يرجع ابن الدين الأغواطي في رحلته السبب الرئيسي لزحف التجاني على وهران هو الاستلاء على خزنتها، وهنا أعتقد ان ابن الدين قد جانب الصواب، اذ لا يمكننا ان نحكم على الحملة العسكرية التي قادها التجاني على وهران على أنها كانت أساسا من أجل المال، بل يجب الرجوع إلى تاريخ العلاقات بين بايلك الغرب (وهران) من جهة ومنطقة الأغواط وعين ماضي من جهة أخرى.

فدائما ما كانت عين ماضي طريق عبور نحو السيطرة على الاغواط من قبل بايلك الغرب. ففي سنة "1785 قام " محمد الكبير " باي وهران برحلته إلى الجنوب لإخضاع الأغواط والانتقام منها – شريطة أن تكون من نصيب بايلك الغرب – فبدأ بإخضاع عين ماضي و تاجموت و بعد ذلك الأغواط التي دخلها بعد مقاومة عنيفة. وبعد جمعه للضرائب المفروضة على سكان المنطقة رجع إلى وهران، لكنه عاد في السنة الموالية 1786 على رأس جيش قوي لأن قبائل الأغواط قد تمردت على ممثلي الباي، فحاصر عين ماضي لكنه لم يستطيع دخولها بسبب تحصيناتها المتينة بعد حصار دام شهرين فانتقل إلى الأغواط. و قد كرر خليفته عثمان، الباي الجديد على وهران سنة 1787 الحملة على الأغواط، و بدأ بحصار قصر عين ماضي للانتقام من الهزيمة السابقة، و قد امتثل له أهل القصر و دفعوا له الضرائب بعد أن هددهم بقطع أرزاقهم، وكان فرار الشيخ أحمد التجاني إلى بوسمغون 6 ثم إلى فاس حيث توفي بها سنة 1814." (بوقرين ، 2010، الصفحات 21-22)

إذا فالسبب الرئيسي لزحف التجاني نحو وهران ليس هو محاولة السيطرة على خزنتها كما ادعى ابن الدين الأغواطي في رحلته، بل هو الانتقام من حكامها الذين تمادوا في ظلمهم من خلال تلك الحملات العسكرية المتكررة على أهالي المنطقة وعلى زاوية عين ماضي مقر الطريقة التيجانية و فرض الحصار عليها سنة 1820 لإرغامهم على دفع ما فرض عليهم من ضرائب، وهذا أمر غير عادل لأن القائمون على ذلك النظام لم يراعوا طبيعة الإنتاج و لا وضعية الفلاحين وحالتهم، و هذا ما زاد في شقاء و بؤس الفلاحين. كل هذه عوامل أدت بسي محمد الكبير ابن الشيخ أحمد التيجاني أن يعلن الثورة على الأتراك وملاحقتهم أينما كانوا و ذلك في سنة 1242 هـ/ 1826 م. لينتقل التيجانيون بذلك من حالة الدفاع التي كانوا عليها إلى حالة الهجوم. (بلعربي و مقنونيف، 2021، الصفحات 719-720)

- إن القارئ لرحلة ابن الدين الأغواطي يلاحظ ضعف ثقافته وقلة اطلاعه في الجانب الديني، فقد ذكر العديد من الأخطاء في هذا المجال، ومنها حديثه عن أهل ميزاب واختلافهم في مسائل الدين عن العرب إذ يقول: "(فهم يرفضون تقديس أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم يعارضون أهل السّنّة، ولكنّهم يتفقون في المذهب مع الوهابيين والفرس وسكان عمان ومسقط،

6 - بوسمغون: إحدى بلديات ولاية البيض، تبعد عن عاصمة الولاية بحوالي 130 كلم، كانت عبارة عن قصر بني على سفوح جبال الأطلس الصحراوي، لجأ إليها الشيخ أحمد التجاني، بعد مغادرته عين ماضي بسبب هجوم باي وهران عليها، وقد مكث الشيخ التجاني في بوسمغون مدة خمس سنوات، استغلها في نشر طريقته، وبعد ذلك غادر بوسمغون متجها نحو مدينة فاس بالمغرب الأقصى حيث توفي بها. (بوقرين ، 2010، صفحة 22)

وكل هؤلاء الناس معتزلة)" (سعد الله، 2011، صفحة 90) فمن خلال هذه العبارة يتضح أن ابن الدين لا يفرق بين المذاهب والفرق الاسلامية، كالشيعة والخوارج والمعتزلة، زد على ذلك أن أهل ميزاب ليسوا من المعتزلة بل كانوا يتبعون المذهب الإباضي.

- وصف الأغواطي مدينة الدرعية عاصمة آل سعود والوهابيين قائلا: (ولهذه البلدة مساجد، ولكن سكانها يختلفون في عقائدهم الدينية عن سكان مكة، فهم لا يكنون احتراما للنبي ولا للصحابة، وهم يؤمنون بمعرفة الله وحده ولا يدعون للرسول كما أنهم لا يقرأون دليل الخيرات، فاذا وجدوه عند أي شخص فانهم يضربونه ويحرقون الكتاب، وهم لا يتسامحون مع التسبيح، فاذا وجدوا السبحة عند أحد يعاقبونه، وهم يعتبرونه مشركا ولذلك يدعونه إلى التوبة إلى الله) (سعد الله، 2011، صفحة 103)، فحسب الدكتور سعد الله فإن هذا الوصف للوهابيين وما بعده يدل على وقوع الأغواطي تحت طائلة الدعاية التي نشرها خصوم الوهابيين ضدهم. فرغم ما في الفكر الوهابي من ملاحظات، إلا أن الواقع الذي شهدته الأمة في تلك الفترة بما يحمله من انحرافات عقدية وصلت إلى الحد الذي يصفه الأغواطي نفسه، هو ما يبرر المحاولات الاصلاحية التي نادى بها الوهابيون في تلك المنطقة، ومما يصفه الأغواطي من انحراف عقدي في النواحي المجاورة للدرعية قوله: (ويوجد في هذه الأقاليم شعوب كثيرة ومختلفة، بعضهم من عبدة النار وبعضهم يعبدون الشمس، وبعضهم يعبدون فروج نسائهم وحيواناتهم، عفانا الله من هذا)" (سعد الله، 2011، صفحة 104).

6- خاتمة:

نخلص إلى القول أن الكتب التي خلفها الرحالة تعتبر من المصادر التاريخية المهمة والتي لا يمكن لأي باحث مهتم بالمعرفة التاريخية أن يتجاهلها، لما تحويه هذه المصادر من نصوص تحمل في ثناياها زخما هاما من المعطيات التاريخية القيمة التي توثق للوقائع التي شهدها الرحالة أثناء رحلاتهم في مختلف الأمصار. فقد كانت عين الرحّالة دائًما بمنزلة آلة تصوير دقيقة تسجل ما حسبه الناس في البلاد التي يزورها غير جدير بالتسجيل والملاحظة، بسبب ألفتهم واعتيادهم عليه، ويعني هذا أن الرحلة قدَّمت لنا الكثير من المعلومات التي تعدُّ مصدًرا أوليا أو مادة خاًما للدراسات التي قامت عليها علوم الجغرافيا والتاريخ، والأثنوجرافيا، وعلم السكان، والأنثروبولوجيا، فضلا عن فروع الدراسات الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

وكما رأينا فيما سبق، فإن رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي الموسومة بـ "رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية" تعد أحد المصادر التاريخية المهمة التي تكلمت عن منطقة الأغواط خلال فترة الحكم العثماني للجزائر- في القرن التاسع عشر-، خاصة وأن الأغواطي يعد أبرز رحالة جزائري، فقد طاف وجال بالعديد من مدن الجنوب الجزائري قبيل دخول الاستعمار الفرنسي، وعايش أحداثها في فترة تاريخية مهمة كما أنّه قدّم وصفا عاما لما رآه داخل المدن التي زراها من مظاهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال حديثه عن القبائل و المذاهب الدينية واللغات.

إن دراستنا لرحلة الأغواطي -ولما فيها من قيمة علمية-، جعلنا نؤمن بضرورة العناية بالرحلات باعتبارها مصدرا مهما للمعرفة التاريخية، و تتجلى هذه القيمة في تلك المعلومات التي تقدمها في مختلف الاختصاصات العلمية التاريخية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، من وصف للمسالك والعمران والسكان ونمط المعيشة من عادات وتقاليد. لتكون الرحلة مصدر مهم لاستخلاص المعارف يلجأ إليها الكثير من الدارسين من مختلف التخصصات العلمية.

- قائمة المراجع:

أبو القاسم سعد الله. (2011). مجموع رحلات – رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي-. الجزائر. المعرفة الدولية.

خالد بلعربي و شـــعيب مڤنونيف. (2021). ثورة التيجانية في بايليك الغرب الجزائر إبّان القرن التاســع عشــر -دراســة تاريخية أنثروبولوجية-. مجلة انثروبولوجية الأديان. 17 (01). الصفحات 716 -724.

عبد الله صالح العثيمين. (2012). الدرعية نشأةً وتطورًا في عهد الدولة السعودية الأولى. الرياض. دارة الملك عبد العزيز.

عيسى بوقرين. (2010). انتفاضة ابن ناصر بن شهرة 1851-1875، (رسالة ماجستير). قسم التاريخ. جامعة الجزائر2. الجزائر.

قسطنطين زريق. (1979). نحن والتاريخ. ط4. بيروت. دار العلم للملاين.

وليام شالر. (1982). مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر. ترجمة: إسماعيل العربي، الجزائر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

Hamy, E. T. (1894). Procès-verbaux: Seance du Samedi 7 Avril 1894. Bulletin de géographie historique et descriptive, 1(1), 125-132.

Hodgson, W. B. (1831). Notes of a Journey into the Interior of Northern Africa -By Hadji Ebn-ed- din El-Eghwaati. MISCELLANEOUS TRANSLATIONS FROM ORIENTAL LANGUAGES, 1(1), 1–31.

Hodgson, W. B. (1834). Grammatical Sketch and Specimens of the Berber Language: Preceded by four letters on Berber etymologies, addressed to the president of the society by William B. Hodgson, Esq.. Transactions of the American Philosophical Society, 4, 1–48. https://doi.org/10.2307/1004827

Shaw, T. (1808). Travels, or Observations, Relating to Several Parts of Barbary and the Levant. London, Ritchie.

Wachi, P. (1900). Notes pour servir a l'histoire du Sud de la province d'Alger. Revue Tunisienne, 7(25), 466–476.